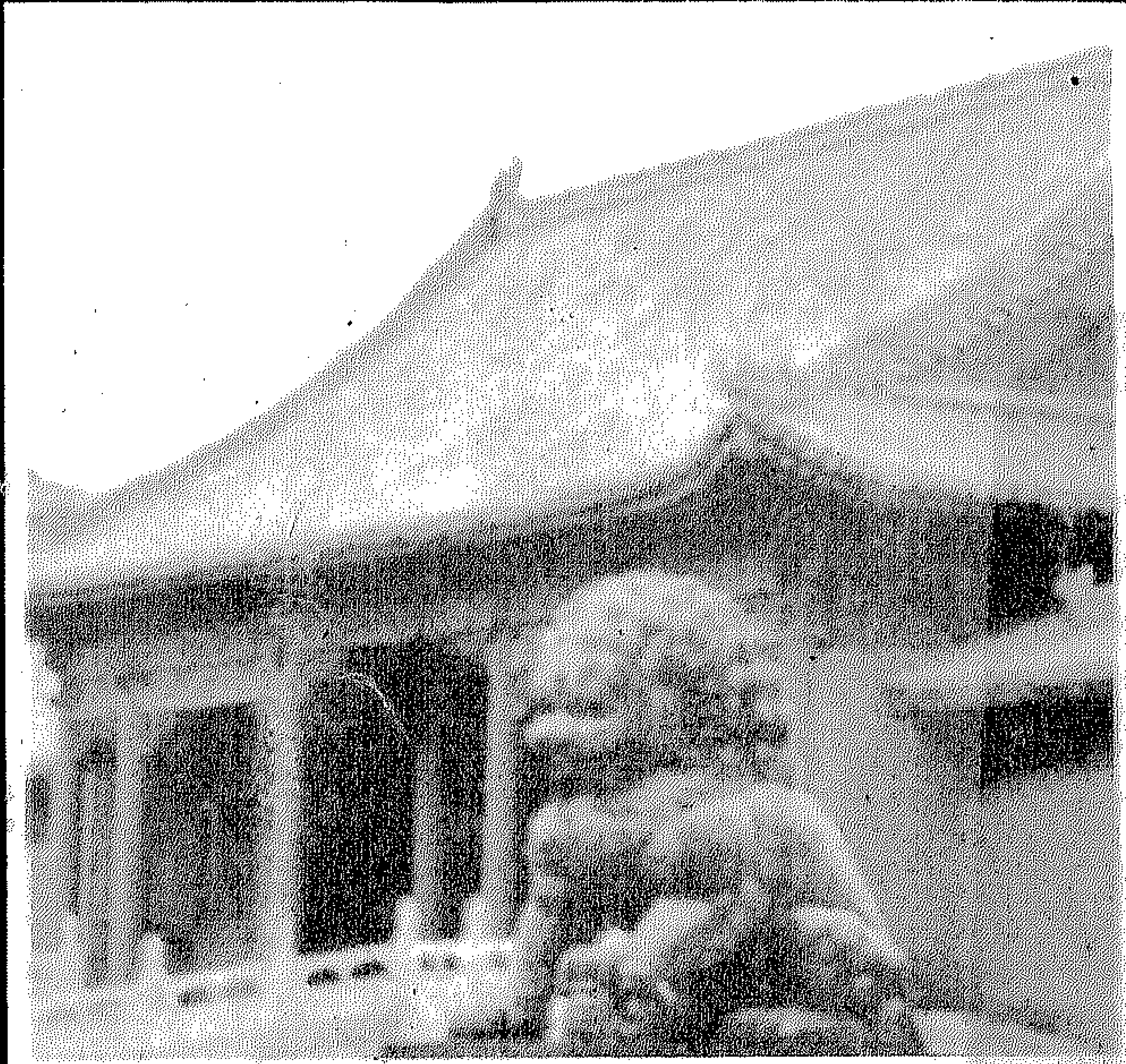
مكتبة الأسرة

المنتخبات

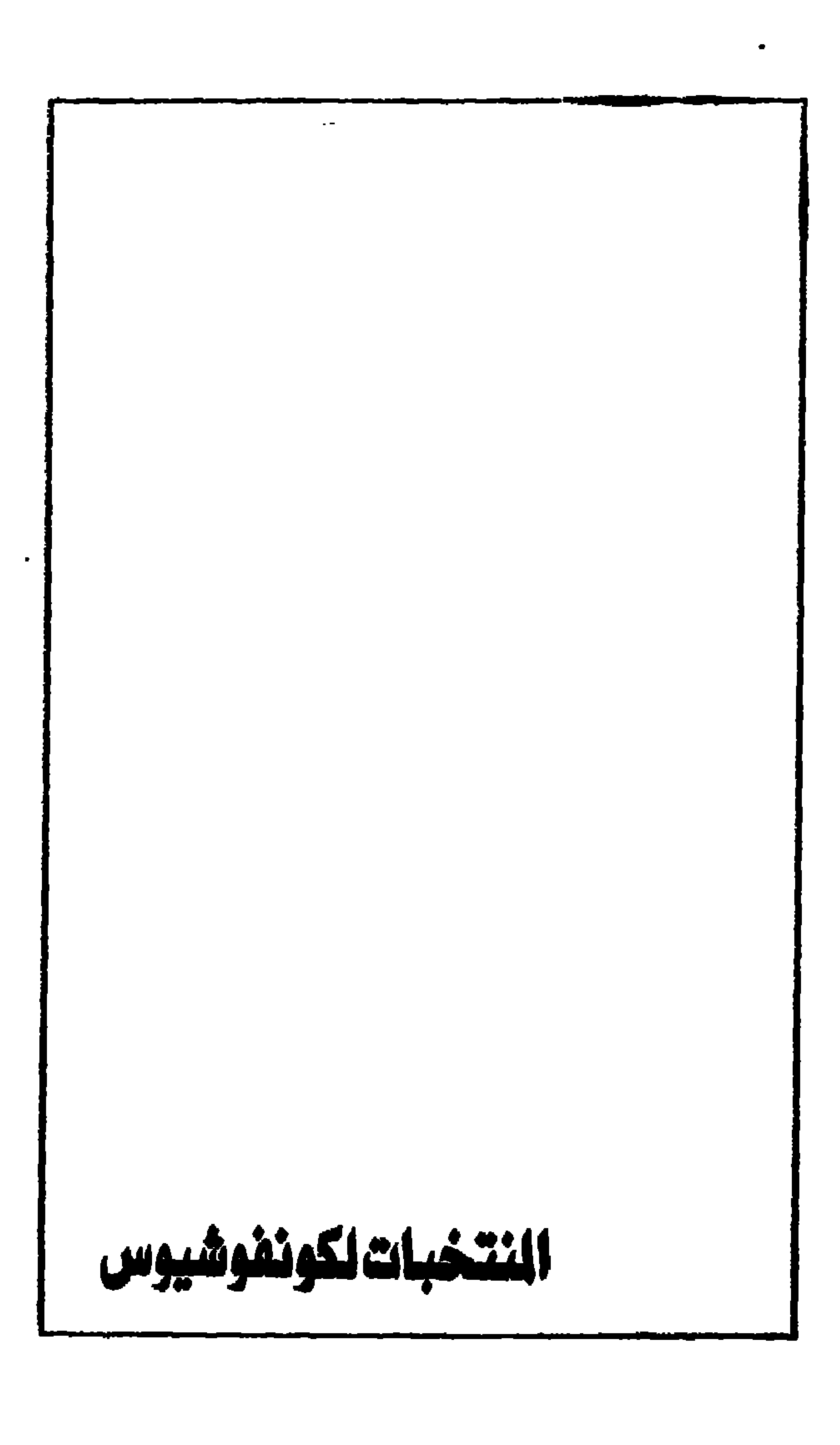
لكونفوشيوس



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

د. يُمنى طريف الخولى

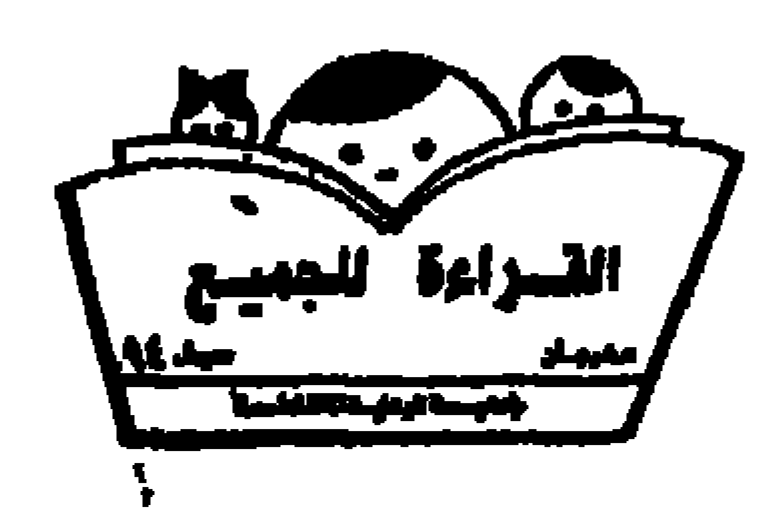
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤


المنتخبات لكونفوشيوس

المنتخبات

لكونفوشيوس

د. يُمنى طريف الخولي



مهرجان القراءة للجميع ٩٤

(مكتبة الأسرة)

تراث الإنسانية

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

الانجاز الطباعى والفنى

محمود الهندى

مراد نسيم

أحمد صليحة

المشرف العام

د . سمير سرحان

المنتخبات
لكونفوشيوس

د . يُمنى طريف الخولى

أستاذة الفلسفة المساعد بآداب القاهرة

فى حضارة الصين :

حضارة الصين من أعرق وأثرى حضارات العالم طرا ، شكلت واحدة من أقدم المدنيـات وأرقاهـا ، لا تضارعها الا حضارة مصر الفرعونية المجيدة • ففى القرن السـابع عشر قبل الميلاد ، بينما كان البرابرة يسكنون بلاد الاغريق وأوربا لا تزال فى مراحل الهمجية ، كانت الصين تعيش فى اطار سلطات سياسية ونظام اجتماعى متماسك ، يحكمه الالتزام بأخلاقيات قويمة ، تسجل قصائد الشعر ونصوصا من الفكر العميق يعلو الى مدارج الفلسفة الواقعية والمثالية معا ، تشهد حفلات الرقص والغناء ، وبراعة ملحوظة فى الفنون التشكيلية ــ خصوصا فن الخزف و « الصينى » •

لم تكن حضارة الصين آنذاك دولة متحدة ، بل مجموعة

دول متصارعة • كل دولة تحاول التوسع على حساب الأخرى ، فضلا عن انقسامها الى ولايات أو اقطاعيات • وقد بلغ عددها سبع عشرة دولة ، ثم أسفرت عن سبع دول كبرى • وكديدن المجتمعات البشرية الأولى ، تكونت جميعها ابتداء من الاستقرار الزراعى على ضفاف الأنهار ، ثم امتصاص أقوياء الزراع لجهود ضعافهم وصغارهم ، ثم اندماج كل منها تحت رياسة رجل مقتدر أو زعيم ، يدينون له بالولاء ، ليكفل الأمن والنظام ، ويضمن الحقوق والواجبات ، ويفض المنازعات ، ويضطلع برد هجمات المغيرين • شهدت هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الصين فترة « الدول المتحاربة » التى تعد العصر الذهبى للفلسفة الصينية ، اذ تميزت بحركة تعليمية واسعة ، ونشاطا فكريا متوهجا ، والعديد الجم من المفكرين يجوبون مختلف الدول أو الولايات الصينية للمناظرة فيما بينهم ، ولعرض الخدمات والنصائح والتعاليم على هذا الحاكم أو ذاك • ومن هؤلاء المفكرين الجوالين فى ربوع الصين آنذاك فيلسوفنا كونفوشيوس (٥٥١ ـ ٤٧٩ ق٠م) • وقد انتهت فترة الدول المتحاربة عام ٢٢١ ق٠م حين تم القضاء على الاقطاع والاقطاعيات ، وتوحيد الصين تماما •

وعلى الرغم من اتساع رقعة بلاد الصين ، التى تقترب من مساحة القارة الأوربية ـ أى حوالى عشرة ملايين

كم٢. (*) ، ومن تعدد أصول الأعراق التى تسكنها ، فان موقعها الجغرافى فى الركن الجنوبى الشرقي من قارة آسيا جعلها تستمتع بعزلة نسبية ، كفلت لها الاحتفاظ بشخصية حضارية متميزة المعالم على مدي تاريخها الطويل .

يتوغل تاريخ الصين المسجل والخاضع للدراسات العلميـة الى ما يقرب من عشرين قرنا قبـل الميـلاد . أما تاريخها الأسطورى ــ حيث دور الخيال الخصيب أضعاف مضاعفة لدور الواقع والوقائع ــ فيجنح الى ما يزيد عن سبعين أو ثمانين قرنا قبل الميلاد . وفي هذا المجال التاريخى الفسيح ، سميت الصين ــ كما يقول ول ديورانت ــ جنة المؤرخين ، لأنها ظلت آلافا من السنين ذات مؤرخين رسميين ، يسجلون كل ما يقع ، وكثيرا مما لا يقع ، ومن أساطير لا تتوقف الا عند بدء الخلق ! يقول ديورانت :

« ومن أقوالهم فى هذا أن (يان كو) أول الخلائق استطاع أن يشكل الأرض حوالى عام ٢٫٢٢٩٫٠٠٠ ق.م ، بعد أن ظل يكدح فى عمله هذا ثمانية عشر ألف عام . وتجمعت أنفاسه التى كان يخرجها فى أثناء عمله فكانت رياحا وسحبا ، وأضحى صوته رعدا ، وصارت عروقه أنهارا ، واستحال لحمه أرضا ، وشعره نباتا وشجرا ، وعظمه معادن ، أما الحشرات التى كانت تعلق بجسمه

(*) مساحة الصين بالتحديد ٩٫٥٧١٣٠٠ كم٢ .

فاصبحت آدميين • وليس لدينا من الأدلة القاطعة ما ننقض به هذا العلم الكوني العجيب ! (١) •

ثم تستأنف الأساطير المسار التاريخي للصين بالملوك الأولين الصالحين ، الذين جاهدوا ليجعلوا من قمل يان كو خلائق متحضرين ، حكم كل منهم ثمانية عشر ألف عام ! يتلوهم رعيل — أكثر معقولية — يعرفون باسم الأباطرة الخمسة ، منذ حوالي القرن الرابع والثلاثين ق•م • أولهم فوهسي البطل الثقافي الأسطوري خالق الفلسفة والمعرفة ومبتكر المتواليات ذات الخطوط أساس الميتافيزيقا الصينية ، ثم شين فونج ، وهوانج تي ، وياو ، وتشو • يعدهم كونفوشيوس نفسه مصدر الحكمة ، خصوصا تشو الذى يمتدحه كتاب « المنتخبات » وكأنه اله • وهذا تصور يرد كثيرا في حضارات آسيا وأيضا أفريقيا ، أى الملك المقدس في العهود الغابرة السحيقة ، ذى القدرة الأسطورية التى تحكم وتسوس كل شيء في الأرضين ، حتى أن آخرهم تشو هو الذى أرسى دعائم النظام فى كل رجى من أرجاء المعمورة ، فقط بمساعدة خمسة من الخدم (٢) • ان

(١) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد ١ ، ج ٤ : الصين ، ترجمة محمد بدران ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٦ • ص ١٤ — ١٥ •

(٢) *The Analects of Confucius*, trans. by Arthur Waley, Vintage Books, New York, from Introduction by A. Waley, p. 17-18.

كونفوشيوس لا يعتبر نفسه مبدعا ، بل فقط هو حافظ ومواصل لمسار هؤلاء لاسيما تشو • وبصفة عامة ، يعتبر الصينيون أولئك الأباطرة الخمسة بمثابة أنصاف آلهة • اذ يعتقدون أنهم هم الذين أخرجوا البشر تماما من وضع الوحوش الضارية ، وعلموهم أصـــول المدنيـة وأركان الحضارة ، فكشفوا لهم الزراعة وأدواتها وصيد الأسماك بالشباك ونسج الحرير وارتداء الملابس والزواج والأكل بالعصي والموسيقى والتصوير والكتابة والمركبـة والعجلات ••• الخ •

وعلى مشارف القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد يبدأ حكم الأسر فى تاريخ الصين بأسرة هسى (٢٢٠٥ ــ ١٧٦٦ ق•م) • تتلوها أسرة شانج أوين (١٧٦٥ ــ ١١٢٣ ق•م) لتكون أول وأقدم ما تؤيده الحفائر والسجلات التاريخية المكتشفة • تلتها أسرة « تشو » التى أسفر تحللها عن الاقطاعيات وانبعاث حكم الاقطاعيين فيما يعرف بفترة الربيع والخريف (٧٢٢ ــ ٤٨١ ق•م) • تمخض الاقطاع عن فترة الدول المتحاربة ــ المذكورة آنفا (٤٠٣ ــ ٢٢١ ق•م) ، حتى استطاعت أسرة تشين (٢٥٥ ق•م ــ ٢٠٧ بعد الميلاد) توحيد الصين تماما فى ظل سلطة مركزية • أعقبتها أسرة هان ، ثم عصر الانشقاق (٢٢١ ــ ٥٨٩ م) حين خضعت الصين الحكم عدة أسر ، حتى انفردت أسرة سوى بالحكم (٥٩٠ ــ ٦١٧ م) • وتعاقب على حكم الصين العديد من الأسر المتوالية ، وصـولا الى قرننا العشرين • وفى عام

١٩٢١ م هبت ثورة عارمة بقيادة « صن ــ يات ــ سن » زعيم حزب الكيومنتانج ، أعلنت الجمهورية بعد أن اقتلعت حكم آخر الأسر ، وهي أسرة تشينج ذات الأصل المنشورى التى حكمت البلاد منذ عام ١٦٤٤ م وحتى عام ١٩١١ ٠ بدأ عهد الكيومنتانج ، وكانت الصين قد بلغت أحط درجات الركود والجمود والتخلف والفقر ، حتى قضى عليه الحزب الشيوعي وتولى حكم البلاد في أكتوبر ١٩٤٩ (٣) ٠

بهذا التحول الثورى بدأت حضــــارة الصين مرحلة جديدة تماما ، متأصلة بجذورها العميقة ٠ توالت التطورات المذهلة نحو النهوض والتحديث والتصنيع والاصــــلاح الزراعي والادارى والتسليح ورفع مستوى المعيشة للمواطنين والعدالة الاجتماعية ، والاستقلال السياسى في اتخاذ القرار ، وعدم التدخل في شؤون الدول الأخرى ، مع الحرص على مد يـد المساعدة للآخرين خصــوصا في المجالات التقانية (التكنولوجية) ٠٠٠٠٠ فاصبحت الصين الآن قوة عظمى يحسب لها ألف حساب ٠ ولحظة كتابة هذه السطور ــ فى صيف ١٩٩٤ ــ تسجل الصين أعلى معدلات التنمية فى العالم ، ١٣ر٤٪ ٠ وكما هو معروف ، تومىء كل المؤشرات الى أن الصين ــ منطقة شرق آسيا على العموم ، سوف تتبوأ السؤدد الحضارى فى المرحلة القادمة ، مثلما كانت

---

(٣) فؤاد محمد شبل ، حكمة الصين ، ج ١ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧ ٠ ص ١٧ : ١٩ ٠

فى ذلك الزمان البعيد ، حيث يدور موضوعنا ، وهو كتاب (المنتخبات Analects) المأثورة عن كونفوشيوس .

كونفوشيوس والتراث الصينى :

فى هذا التاريخ الطويل العريض يتربع كونفوشيوس ، بوصفه أهم شخصية فى تشكيل الوعى الصينى ، وأقدر من استطاع تمثيل سيماته وقيمه العريقة الممتدة على مسار الزمان وأصول الطقوس والشعائر ، حاملا التقاليد والأعراف أو الهيئة الحضارية الصينية . هذا فضلا عن « امتداد تأثيره الى الهند الصينية واليابان وكوريا والبلاد التى تعرف الآن باسم فيتنام » (٤) . ولا يوجد من يضاهى كونفوشيوس فى مثل هذا التأثير العارم والفريد ، ولا فى قدرته على تجسيد الشخصية الصينية ، فى ابداعه وفى تدريسه وفى تفسيره لتراثها . لذلك يكاد يكون الممثل الرسمى لهذه الحضارة العتيدة فى عراقتها وفى أصولياتها . وينظر اليه أهل الصين نظرة المؤمنين الى أنبيائهم الذين حملوا لهم رسالة الحق والفضيلة والطريق القويم الى الظفر فى الدارين . وحاكوا الأساطير حول مولده وحول صفاته . فيقال ان الصينى قد يعتنق التاوية أو البوذية أو المسيحية أو الاسلام ، لكن يظل فى جوهره كونفوشيا .

---

(٤) The New Encyclopedia Britannica, Vol. III, p. 78.

وحين استولى الشيوعيون على الحكم عام ١٩٤٩ وامسكوا بدقة الأمور ، استبعد ماوتسى تونج الكونفوشية تماما بوصفها طبقية رجعية محافظة ، لتنفرد الفلسفة الماركسية بالميدان • ولكن بعد سنوات قليلة ، فى منتصف الخمسينيات سرعان ما اتضح أن هذا مضاد لطبائع الأمور الصينية • فعاد طلبة الفلسفة الى دراسة تعاليم كونفوشيوس بجانب الماركسية • وتم ترميم معبد كونفوشيوس القديم (٥) ، وهو قبره بمدينة تشو - فو ، بولاية شانتونج • ولا غرو فليس ثمة مبالغة فى القول ان الصين هى بلاد الكونفوشية (٦) •

كل هذا ، على الرغم من أن كونفوشيوس لم يأت من فراغ ، ولا يمثل نقطة بدء ، بل شهدت الصين قبله نفرا من فلاسفة عظام مبدعين حقا • وقد أسفر تراثها القديم السابق على كونفوشيوس عن خمسة مصنفات هامة ظلت تتمتع بالتوقير والتبجيل ، وتعرف باسم الأدبيات أو الكلاسيكيات الصينية الخمس •

لكن كان كونفوشيوس هو الذى قام بتجميعها وتصنيفها وتبويبها والتعليق عليها ، أو ما نسميه الآن اعدادها للنشر • •

---

(٥) كارل اسكلوند ، جولة فى الصين ، ترجمة عمر الاسكندرى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، د•ت ، ص ٥٨ •

(٦) Ch'u Chai & Winberg Cha. Confucianism Barron's Educational Series, New York, 1973, p. 2.

وهذه الأسفار الخمسة هي :

أولا : كتاب الأغاني • حيث جمع كونفوشيوس ثلاثمائة وخمس من الأغنيات والتواشيح ، قيلت على مدى ألف عام ، وتمثل العقائد والطقوس والأعراف والتقاليد ، وأيضا المشاعر كهموم الحب ومتاعب الحرب •

ثانيا : كتاب التاريخ ، الذى يعد سجل خطب وأقوال الحكام منذ العهد الأسطورى ، حوالى ثمان وخمسين قطعة أو وثيقة ، وضع كونفوشيوس مقدمة لكل منهـا تبين ظروفها ، وتعتبر هذه القطع أو الوثائق بمثابة نماذج لنصح الحكام •

ثالثا : كتاب الطقوس ، الذى يضم نصوصا تغطى مجالات تبدأ من الفلسفة العميقة وتنتهى بأنماط الحيـاة اليومية • وقد أصـبح هـذا الكتـاب محكا لآداب السلوك • ويلحق به كتاب خاص بالموسيقى •

رابعا : حوليات الربيع والخريف ، وهو سـجل مختصر لأحداث دولة لو ــ مسقط رأس كونفوشيوس وموطنه الأصلى ــ فيما بين عامى ٧٢٢ ــ ٤٨١ ق•م •

خامسا : كتاب التغيرات ، وهو يحتاج لوقفة خاصة • اذ بينما تخوض الهند الى آخر المدى فى الميتافيزيقيات وعوالم الأديان المطلقة ، تتميز فلسفة الصين بمنحى عملى وضعى ونزوع أصيل نحو هذا العالم الانسانى ،

وعزوف عن المجردات والغيبيات • وسوف نرى الى أي حــد تجســد فلسفة كونفوشيوس هذه النزعة الانسانية •

من هنا يحتل كتاب المتغيرات مكانة فريدة فى التراث الصيني ، لأنه يكاد يكون اســهامهم الوحيد فى غياهب الميتافيزيقا • يقال ان الامبراطور الأسطورى فوهسى ـ أول الأباطرة الخمسة هو الذى وضعه عام ٣٣٢٢ ق•م ، ويقال بل ان واضعه هو الملك الفيلسوف ون ــ وانج مؤسس أسرة تشو الملكية ، التى حكمت فيما بين عامى ١١١٢ ـ ٣٥٦ ق•م • ولعــل ثمــة أقـــوالا أخــرى • لكن الثــابت أن كونفوشيوس قد حققه ، ووضع له حواشي وتعليقات •• أو كما يسميها الصينيون (أجنحة) •

يبدو هــذا الكتـــاب وكأنه في التنجيم والكهــانة والعرافة • ولكنه أولى المعـــالجات العميقةلفلسفة التغير والصيرورة ، التى تسبق معالجة هيراقليطس • تقوم على أساس أن التغير هو القوة المبدعة في هذا الوجود ، يجرى في مجراه الوطيد وفقا لسننن ثابتة • انه نظام كونى ، لابد أن يتوافق الانسان معه •

وعن طريق « خطوط متوالية » يرسم هذا الكتاب الصغير صورة مفرطة التجريد والتعقيد والالغاز لجوهر هذا التغير الذى يقوم على عاملين ، ايجابى وسلبى ـ هما اليانج والين ، اللذان لعبا دورا هاما فى الأنطولوجيا الصينية •

فيطرح الكتاب تصورا ميتافيزيقيا شاملا للكون • ينتهى مع كونفوشيوس الى الفضـــائل الخمس الثابتة : المحبة والعدالة والاحتشام والحكمة والحق (٧) •

والغريب حقـا أن جهـود كونفوشـيوس التدوينية أنصبت على هـــذه الكلاسيكيات الخمس ، ربما لأنه كان يستخدمها فى تعليم تلاميذه وتثقيف مريديه • أما الفلسفة الكونفوشية الخاصة به فقد كان ينزع فى بسطها نفس المنزع السقراطى ، أى التلقين الشفاهى وبثهـا حية فى نفوس تلاميذه ومريديه •

من هنـا دون تلاميـذه كتـاب (المنتخبـات) بعد وفاته (*) • فكان مجموعة فقرات متفرقة ومستقلة قصيرة ، أطولهـــا نسبيا الفقرات الثلاث الأخـيرة ـ فى الكتـاب العشرين • وهى فى مجموعها حوالى خمسمائة فقرة ، أكثر من نصفها يبدأ بالعبارة : « قال المعلم » ، وبعضها أقوال لتلاميذه ، أو أقاصيص تروى ليستخرج منها الحكمة ، وفى

(٧) فؤاد شبل ، حكمة الصين ، ص ٣٤ وما بعدها • و :
Chai, Confucianism, op. cit., p. 8-18.

(★) دونوا عنه أيضا (التعاليم الكبرى) وجمع حفيده كتاب (عقيدة الوسط) • لكن هذين الكتابين يعدان فصلين من فصول كتاب (الطقوس) • من هنا كان (المنتخبات) أهم الأعمال الثلاثة المأثورة عن كونفوشيوس •

(هالة أبو الفتوح ، المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة . ١٩٩٠ ، ص ٤٨ : ٥٦) •

الصدارة ثمة الأقاصيص المروية عن الملوك والأباطرة الأولين الصالحين • وقد انتظمت جميع الفقرات في عشرين كتابا ، أو بالأحرى عشرين فصلا قصيرا غير مصنفة أو معنونة ، اكتفاء بالترقيم (الكتاب الأول •• الكتاب الثاني ، الكتاب الثالث ، الرابع ••• الخ) •

هذه الفقرات هي صلب وجوهر الفلسفة الكونفوشية الباقية على مدار خمسة وعشرين قرنا من الزمان ، والتي سنعرض لها الآن • ومع تعدد جوانبها المتشابكة مع مجمل التراث الصيني ، فانها تدور أساسا حول الأخلاق وتهتم كثيرا بالسياسة • وعلى الرغم من هذا ، ومن أن مهمة أو عمل كونفوشيوس أساسا تدريب أبناء الطبقة الراقية ــ ومن يريد أن يحذو حذوهم ــ على الخصــال الفاضلة كي يؤهلهم للمشاركة في الحكم ، « فان كونفوشيوس لا يعد مربيا أو معلما أخلاقيا ، بل هو (حكيم) بالمعنى الدارج لهذا المفهوم » (٨) • وبعد موته ذاعت المدارس التي تعلم فلسفته ، والتي كانت بمثابة مراكز ثقافية حاملة للواء الحضارة الصينية •

لقد سادت الكونفوشية في النهاية ، على الرغم من أن نزعتها مثالية جامدة متزمتة ، ومن أن تيارات أخرى كالتاوية والمدرسة القانونيــة قاومتها • وحين أمر الملك

---

(٨) The Analects of Confucius, Introduction by : A. Waley, p. 13.

شي ـ هوانج ـ دى باحراق كتب كونفوشيوس ، جعلها هذا كتبا مقدسة يستشهد الناس للحفاظ عليها • على العموم ، اعتلى العرش فيما بعد ـ فى القرن الثانى قبل الميلاد ـ تاى دز ونج ، فأمر بتشييد هيكل لكونفوشيوس فى كل مدينة وأن تقرب له القرابين (٩) • فنشأ فى هذا العصر اتجاها كونفوشيا قويا ، انكب على حفظ فلسفته وتفسيرهـا ، لتتوالى عبر العصـور الشروح والتعليقات والتفسـيرات والتأويلات • وانتشرت معابد الكونفوشـية بطول البلاد وعرضها • لقد أصبحت وكأنهـا دين الدولة الرسمى ، ويظل كتاب (المنتخبات) بمثابة انجيلها •

وسبيلنا الآن الى رحلة مع هذا الرجل كونفوشيوس ، وكتاب (المنتخبات The Analects) أو كما يسمى بالصينية ـ « لون يو » Lun Yü (١٠) •

---

(٩) ول ديوارنت ، قصة الحضارة ، جـ ٤ : الصين . ترجمة محمد بدران ، ص ٦٥ـ٦٦ •

(١٠) From : Macgill F.N. & McGreen I.P. (eds.), *Masterpieces of World-Philosophy*, Harper, New York, 1950- pp. 5-11.

• الصفحات القادمة تحمل ترجمة دقيقة لهذا العرض الجيد لكتاب (المنتخبات) • مع أضافة عناوين جانبية ، وبعض الهوامش المستقاة أساسا من نص كتاب المنتخبات ، أو من دراسة آرثر ويلى الممتازة له • العناوين والهوامش التى أضفناها تبغى جميعها مزيدا من التوضيح والاحاطة • • •

هذا الرجل كونفوشيوس :

كان كونفوشيوس ، الذى تعزى اليه جل الأقوال الكائنة في « المنتخبات » ، سليلا لعائلة ذات نفوذ من دولة « لو » ، وهي في عصرنا الحاضر المقاطعة الصينية الشرقية « شانتونج » · اسم عائلته « كونج » · أما أسماؤه هو فكانت « تشيو » و « تشونج نى » · وبفضل ما لاقاه من تبجيل ، أصبح يعرف فيما بعد بالاسم « كونج فو ـ تزو » (*) الذى يعنى الأستاذ المعلم كونج · وحين مولده ، كانت أسرته قد حل بها الفقر وشظف العيش ، ولكن كان يمكنه أن يزدهي بسلالة طويلة من الأسلاف اللامعين . تغطي مسار الأزمنة رجوعا الى ما قبل عهود أسرة تتسو الحاكمة · ولعل تاريخ أسرة كونفوشيوس ، بسبب صيته ، أكمل سلاسل النسب في العالم وأكثرها امتدادا · والى أواسط القرن العشرين ، كان ثمة رجل يعيش في فورموزا ، يدعى كونج ـ ثى ـ تشينج ، يعرف رسميا بأنه الجيل السابع والسبعون من سلالة كونفوشيوس (١٠) ·

(*) اذن (كونفوشيوس) هو النطق اللاتينى للاسم الصينى ، كونج ـ فو ـ تزو » وقد شاع الاسم كونفوشيوس شيوع الثقافة العربية ·
Chai & Chai, Confucianism, p. 28.

(١٠) ويقال ان بلدة كونفوشيوس ، أى مدينة تشوفو بولاية شانتونج لا يعمرها الآن الا نسله ، أو بالاحرى نسل ابنه الوحيد · ومنهم وزير المالية بحكومة الصين فى منتصف الثلاثينيات ··

(ديورانت ، قصة الحضارة ، ص ٤٠)

خرج كونفوشيوس للعمل وهو لا يزال فى طور المراهقة ، لأنه كان قد تيتم فى سن مبكرة (دون الثالثة من العمر) • وشغل عددا من الوظائف الصغيرة بالحكومة وفى العمل مع النبلاء • وبفضل سجل خدمته المشرف وتثقيفه لذاته ، سرعان ما اكتسب اعترافا واسعا • فتحلق من حوله الطلاب لتلقى التعليم فى الأخلاق والآداب وفن خدمة الحكومة • ولاقى التبجيل خصوصا بسبب معرفته بالطقوس والشعائر القديمة • سار تحت لوائه رجال مختلفو الاهتمامات والأمزجة • وعبر السنين تنامت الأساطير والأقاصيص المتواترة حول تاريخ كونفوشيوس ، ومن ثم تؤلف تفاصيل سيرة حياته رواية عن حكيم قديم ، لا يمكن أن تكون الا مثيرة وشيقة • فقيل ان كونفوشيوس كان عليه أن يصبر على تلميذ له ضنين للغاية حتى أنه لم يدع معلمه يستعير مظلته ، ونتيجة لهذا بلل المطر كونفوشيوس على الأقل ذات مرة • وتقول الأقصوصة المتواترة أن كونفوشيوس كان عليه أن يداوم على كبح جماح تلميذ ثان له ذى مزاج حاد ورطه وورط أستاذه فى مصاعب متكررة • وساد الاعتقاد أن أمام كونفوشيوس مهربا ضيقا لينجو من مزيد ثالث وصلت ردود أفعاله ضد نصائح أستاذه الأخلاقية والتى لا تتوقف أبدا الى حد نية قتله •

وقد قسم كونفوشيوس وقته بين محاضرة طلابه ، واعداد المواد الاطلاعية لهم ، ومحاولة تعقب رجالات الحكومة لكى يأخذوا بأفكاره • ولئن كان قد فشل فى تلك المهمة

الأخيرة ، فانه بالقطع حقق نجاحا ملحوظا جدا في المهمتين الأوليين ، كما يشهد كتابه « المنتخبات » أو ال « لون ـ يو » وتأثيره اللاحق • ولأن كتاب « المنتخبات » مجموعة أحاديث مسترجعة من الذاكرة سجلها مريدوه وتلامذتهم ، فمن الواضح أن يثار السؤال بشأن دقة عباراته • بالاضافة الى هذا ، نجد أن أسلوب هذه الأحاديث المفرط الايجاز يجعلها عرضة لتأويلات متباينة • على أية حال ، حينما نتمعن في دراسة هذه الأقوال بعناية ، تبرز بجلاء عدة أفكار ناصعة تمثل مفاتيح تفض مغاليق المذهب الكونفوشى •

الجين أساس الأخلاق :

ولعل فكرة الجين (١١) تتبوأ الأهمية العظمى في ذلك

---

(١١) يقول آرثر ويلى ان كلمة الجين في اللغة الصينية المبكرة تعنى الرجل الحر المنتمى لصلب القبيلة ، كمقابل لموالى القبيلة أو الرعاع ال min • ان الجين والمن طرفا نقيض • وهذا الأصل البعيد يحمل معه المعنى المطلوب ، فرجال القبيلة الأصلاء يتعاملون معا بشهامة ودماثة واريحية وانسانية • ومع تعديل طفيف اصبحت كلمة الجين تعنى الرجل الخير الفاضل باوسع معانى الكلمة • كما أن هذا المصطلح يرد أكثر من مرة في كتاب الأغانى ، وكنعت للمحب المخلص الكامل الأوصاف •
The Analect of Confucius, Introduction, p. 27.

ويرى ويلى أن لفظة « الخير » good هى أفضل ترجمة تغطى المعنى الواسع للجين في الفلسفة الكونفوشية الذى يرتد في النهاية الى الاخلاص البشرى Ibid, p. 29. •

العنقـود المركزى من الأفـكار الملموسـة فى الفـكر الكونفوشى . فالجـين أسـاس فلسـفة الأخـلاق الكونفوشية ، لأنه يتصـدى للعلاقة المثلى بين الكائنـات البشرية . والدلالة المستخلصة من الأصل الاشتقاقى اللغوى لأبجدية كلمة الجين الصينية تعطينا مفتاحا لهذه الفكرة : فالرموز التى تكون هذه الكلمة تعنى « كائنين بشريين » ، ومن ثم فانها توحى « بالعلاقة المثلى بين أى كائنين بشريين . يطرح الجين خلق الدماثة والشهامة والانسانية والخيرية ، ثم الأريحية . وهذا المعنى الأخير هو المستعمل عادة لترجمة ذاك المصطلح . جملة القول ، ان الجين هو الفضيلة الكملى لبنى البشر ، انه الطريق الأوحد لسلام المجتمع وانسجامه وذاك الذى يعتنق مبدأ الجين سوف يعامل الناس بدماثة وانسانية ، سوف تسير كل أموره على ما يرام .

وحين يتساءل المريدون عن وجود الجين وعن وظائفه ، يجيب كونفوشيوس مؤكدا على أهمية جعل مبادىء الجين جوانية لتصبح منزعا طبيعيا للانسان ، ليس فحسب ، بل ويؤكد أيضا على أهمية التعبير عنه بالممارسة اليومية . لقد رام من طلابه أن يمارسوا الاحتشـام والشهامة وطهارة

= ان الدراسة المنهجية لفلسفة كونفوشيوس لابد لها من المصادرة على أن الجين أساس الفكر الكونفوشى وعصبه الأخلاقى والسياسى معـا . (هالة أبو الفتوح ، المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس ، ص ٧٧ . (٢٢٣ .

السريرة والمثابرة والعطف ، فى كل موضع وآن • وانتهى به الأمر الى تأييد حنو لامتناه ، وذلك حينما أوجز تفسيره الخاص في صيغة أمر محكم بليغ : أن تمارس الجين يعنى أن « تحب الجنس البشرى » كلية • ويؤكد كونفوشيوس أكثر ما يؤكد على أن الجين ليس تجريدا ميتافيزيقيا مترفعا يتجاوز حدود ادراك الشخص العادى • بل على العكس ، يصر على أن الجين يقبع قريبا فى متناول كل شخص لكى يتفهمه ويدركه • أما الصعوبة ـ كما رآها كونفوشيوس ـ فتكمن في أن ثلة قليلة من البشر قادرة على الصمود طويلا • فحتى من بين مريديه المتميزين ، ذكر كونفوشيوس شخصا واحدا فقط نجح فى ممارسة الجين بثبات •

وحينما يتحدث كونفوشيوس عن أهمية الجين ، يمكن أن نستبين نداء بالجد يدانى وهج الحماسة الدينية • اذ يقر بجلاء لا تخطؤه العين أن الرجال الأخيار يضحون بحيواتهم لكى يتمسكوا بالجين وأنهم لا يمكن أن يتبدلوا عن الجين للنجاة من أية كارثة • وعلى ضوء هذا تصبح مبادىء الجين الكونفوشية أكثر من معايير نسبية للسلوك الاجتماعى المرغوب ، انها تصورات لها مطلق الصدق والحق • بيد أن بذور هاتيك التصورات ، كما يفسرها كونفوشيوس ، لا توجد البتة خارج طبيعة الانسان الأساسية • واذا كنا لا نجد اطلاقا ما يرشدنا الى بيان صريح لرأى كونفوشيوس فى طبيعة الانسان ، فانه مع هذا يميط اللثام عن افتراضه أن الانسان يولد بنفس الصورة وأن التعبيرات المباشرة عن

طبيعة الانسان الأصلية تقترب من الجين أكثر كثيرا مما يستطيعه أي تكلف • وثمة شرط واحد لا سواه يصر عليه كونفوشيوس : أي تعبير مباشر عن صميم طبيعة المرء ينبغي ان يكبحه ال « لي » (قواعد اللياقة) كيما يخلص الولاء لمبادىء الجين •

القواعد في اللي : Li

محكم القول ، ان قواعد اللياقة ، ال « لي » (١٢) ـ اذ ما أخذت حرفيا ـ قد تعني الطقوس والشعائر أو الآداب الاجتماعيـة والهيئـة الجيدة أو الذوق ، لكن من الواضح أن كونفوشيوس يستعمل هذا المصطلح ليعني به ما هو أكثر كثيرا من مجرد التعبيرات البرانية عن الالتزام الاجتماعي الصوري • وكونفوشيوس بوصفه خبيرا وثقة في الطقوس والشعائر القديمة ، فضل أن يجعل طلابه ينظرون الى ما وراء الموسيقى والأبهة ، و « أحجار اليشب الكريمة والحرير » والمظاهر الأخرى التي عادة ما تصاحب الطقوس

---

(١٢) باختصار اللي هو ذلك الحشد الهائل من القيم والأعراف والتقاليد والعادات الاجتماعية التي هي بمثابة ملاط يمسك المجتمع ويحقق مظهره الحضاري وشخصيته الانثربولوجية • ولأن اللي هو المجاملة والخلق الفاضل ، فانه أيضا توازن الفرد وسعادته •

ثم أن اللي ـ الطقوس ـ كمبدأ للنظام الاجتماعي ، يمنع الفوضى كما تمنع السدود الفيضان •

(هالة أبو الفتوح ، المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس ص ٩٧) •

والشعائر · ويؤكد فى « المنتخبات » على ماهية الـ « لى » بوصفه الكيفية التى تميز الانسان والتى بدونها يصبح كالحيوانات الضارية سواء بسواء ويندثر المجتمع الانسانى من الوجود · وأيضا يخبر كونفوشيوس نجله بأن يدرس اللى ، لأن الانسان الذى لا يعرف اللى لا يعرف كيف يتصرف كانسان ·

هكذا يرتفع اللى بوصفه دليلا على مدنية الانسان · ان اللى شىء جوهرى للحياة المصقولة والمتثقفة والمنتظمة ، والتى هى الهـــدف المركزى من تعاليـــم كونفوشيوس الاجتماعية · وباللى يســتطيع الانســـان ترويض الوحش الضارى المستكن فى أعماقه ، وأن يجعل نفسه عضوا صالحا فى المجتمع · وبأكثر من عبارة ، يطرح كونفوشيوس آراءه فى الانتفــاع السيكولوجى من اللى ، لكى يجلب الهــدوء والاتزان للانسان فى الأوقات الحرجة · ان اللى هو تذكرة كونفوشــــيوس الطبيــة لوقــاية المجتمــع من الفــوضى والاضطراب ·

ولا يألو كونفوشيوس جهدا لكى يخلف فى نفوس تلاميذه انطباعا قويا بأهمية الطقوس والشعائر ، اخلاصًا منه لمركزه الذى اختاره لنفسه كحامل لواء ثقافة تقليدية · وهو نفسه ما كان ليأكل اذا لم تقدم الوجبة وترتب المقاعد بالطريقة الملائمة ، وما كان ليترجل اذا ما رافقه ذوو مقام رفيع ، وما كان لينظر أو يستمع أو يتكلم الا اذا تأكد من

أن كل تصرف له كان وفقا لقواعد اللياقة (اللى) • والحق أن أقواله والعبارات الأخرى التي تروى عنه في هذا الكتاب تعرض لنا رجلا ذا عناية مفرطة بشأن الطرق الملائمة • ويشعر المرء أن كونفوشيوس كان يتعمد أن يفعل هذا لكي يصوغ التراث الثقافي لدولته صياغة درامية ، فهي دولة « لو » الوثيقة الاتصال بأسرة « تشو » الحاكمة (١٣) • ويتمسك فى فلسفته ببقاء مؤسسات تشو التى تمثل فى منظوره السياسى ذلك الماضى الذهبى • وبالطبع يجب أن نتذكر أن كونفوشيوس يرتفع بالروح والملاءمة والاخلاص الكامنة خلف الطقوس والشعائر فوق الرسميات الشكلية • إنه يوجه طلابه الى ملاحظة البساطة ، لا التباهى المسرف ، بوصفها المبدأ العام فى كل الطقوس والشعائر ، والى أن يتحققوا من الوجدان الأصـيل وراء أية ملاحظة للطقوس والشـعائر ، وليس من مجرد الحضور الفيزيقى للآداب الاجتماعية • فتبعا لتعاليم كونفوشيوس تنـال روح اللى

---

(١٣) حكمت أسرة تشو فيما بين عامى ١١٢٢ ـ ٣٥٦ ق٠م٠ أسسها الملك ون ، والفلسفة الكونفوشية تجعل منه ومن دوق تشو أبطالا عظاما • (هبل ، حكمة الصين ، ص ١٧) ، وكما ذكرت فى التقديم ، هذه هى الأسرة التي أسفر تحللها عن انبعاث حكم الاقطاعيين . ثم فترة الدول المتحاربة ، وجاء كونفوشيوس ليجعل نفسه مواصلا لمسار أسرة تشو وحافظا لتراثها ، باعتبارها العهد الذهبى للحضارة الصينية ، ولأخلاقياتها • ان مدينة كونفوشيوس تشوـفو ، كان مركزا لثقافة تشو ومؤيدها • وتشو هو آخر الاباطرة الخمسة الصالحين •

فقط حينما يكون الانسان الذى يمارس اللى ذا جين • وها هنا ـ فى الجين واللى ـ نجد فكرتين هما مفتاح من مفاتيح الفلسفة الكونفوشية ، تجتمعان معا لتشكلا طائفة التشن ـ تزو •

تشن ـ تزو •• الانسان الماجد : Chün-tzu

وتشن ـ تزو لا تعنى أصــــلا أكثر من ابن السيد الاقطاعى • أما استعمالها الأكثر شمولية ، فقد أكسبها المعنى الأوسع ، معنى أى انسان « عريق المحتد » • وحين يرد هذا المصطلح مرارا وتكرارا فى العبارات الكونفوشية ، لا نجد تأكيدا على عنصر « المحتد العريق » أو الأصــــل الطيب للعائلة • ويصبح التشن ـ تزو ببساطة « الانسان الفاضل » أو « أفضل البشر » ليتناقض تناقضا متميزا مع هسياو ـ جن ، « الانسان الحقير » أو « الانسان التافه » • ويمكن أيضا التعبير عن معنى المصطلح فى « المنتخبات » تعبيرا سديدا بأنه « الانسان الأعلى » كنقيض « للانسان الأدنى » •

يرسم كونفوشيوس فى التشن ـ تزو صورة للانسان المثالى • وهذا الانسان الكامل ذو فهم شامل للجين وممارسة دائمة له • انه يتصرف دائما وفقا للى ، وقواعد اللياقة جزء من طبيعته حتى أنه لا يستطيع البتة أن ينتهكها • وتمتزج استقامته ، أو التعبيرات عن طبيعته الأصلية امتزاجا تاما مع القسط المناسب من التهذيب ، بحيث لا يكون مدعيا

متحذلقا ولا فجا ساذجا • انه يتعامل مع الآخرين بتكلف حميم • له ارادة فولاذية ومظهره هادىء لأن الجبن فيه يقيه من القلق ، وتحميه حكمته من الحيرة والارتباك ، وتبدد شجاعته أى خوف محتمل (١٤) • وبينما يبحث ذوو العقول التافهة عن الربح ، فان هذا التشن ـ تزو منشغل دائما بما هو صواب • وقد لا يحوز كثيرا من المعرفة الفنية عن التفاصيل لكن عقله قادر على ادراك ما هو جوهرى وذو مغزى • وفوق كل هذا يكتنز التشن ـ تزو التاو ويبحث عنه •

التاو •• الطريق •• السبيل : Tao

يختلف التاو الكونفوشى اختلافا شاسعا عن التاو فى التاوية الصوفية (١٥) • يتحدث كونفوشيوس عن تاو الملوك

---

(١٤) نص الفقرة (٢٨) من الكتاب التاسع : « قال الأستاذ المعلم ذلك الذى هو خير حقا لا يمكن البتة أن يشقى ، وذلك الذى هو حكيم حقا لا يقع أبداً فى الحيرة والارتباك • انه هو الجسور حقا ، والذى لا يهاب شيئا البتة » • (The Analects, p. 144)

(١٥) اكسب كونفوشيوس كلمتى الجين والتشن ـ تزو قوة مصطلحية كبيرة • أما (التاو) فهو مصطلح ضخم جبار فى الفلسفة الصينية ، والتاوية هى الفلق الأيسر المواجه لفلق الكونفوشية الأيمن فى تشكيل الفلسفة الصينية • وكونفوشيوس يستعمل مصطلح (التاوية) ببساطة وكما هو مطروح فى التراث الصينى ليعنى الطريق أو الدرب أو السبيل أو النهج أو المنهج المؤدى الى مرام سامق •

الأولين الصالحين ، بما يعني السبيل الى حكومة مثلى ومجتمع أمثل ، وعن تاو الانسان الفاضل بما يعني السبيل المستقيم لأن يكون انسانا • ومرات عديدة يعامل كونفوشيوس كلمة التاو على أنها اسم آخر للاستقامة والحكمة • وكما فعل كونفوشيوس مع الجين ، يتحدث عن التاو أيضا بتفجير طارىء لمشاعر التقوى • ومن ثم نسمعه يعلن : « هذا الذى يستمع للتاو فى الصباح يمكنه أن يسلم الروح قانعا فى المساء » (١٦) • فى هذه الحالات يناهز كونفوشيوس التعبير عن وقفة دينية •

عالم الروح ولا أدرية كونفوشيوس :

على وجه الاجمال ، يلزم كونفوشيوس صمتا بليغا بشأن المسائل الفائقة للطبيعة • وفى « المنتخبات » لا يدافع عن الأفكار السائدة بشأن عالم الأرواح ولا هو يحاول تقويضها • وبدلا من هذا وذاك يوجه مريديه توجيها لا يحتمل قولين الى أن يكرسوا عقولهم لشؤن البشر ، وألا يشغلوا أنفسهم بتساؤلات عن الأرواح • ويخبرهم أنهم يجب أولا أن يتعلموا ما يكفى عن هذه الحياة قبل أن يبحثوا فى حياة أخرى بعد ذلك ، وقد بقى هو نفسه طوال حياته منشغلا بدراسة هذا العالم انشغالا لا يترك له فراغا لمعالجة مسألة العالم الآخر • وحين يسأله تلميذه عن العلاقة بين

(١٦) هذا هو نص الفقرة الثامنة من الكتاب الرابع •
(The Analects; p. 103)

الطقوس والشعائر وبين الأرواح ، يجيب كونفوشيوس بأنه ما دام الاخلاص هو جوهر الطقوس والشعائر ، وجب على المرء أن يقيم طقوس وشعائر الأضحية لأسلافه « كما لو كانوا حاضرين » ، وللأرواح أيضـــا « كما لو كانت حاضرة » (١٧) · وكما يقول كونفوشيوس لا ينبغى أن يذهب المرء الى ما وراء هذا · فيكفى « أن نحترم الأرواح ، ثم ننصرف بعيدا عنها » ·

وقد يملكنا شيء من التعجب بشأن أحد مريديه الذى أعلن عن خيبة أمله حين حاول أن يتعلم شروح كونفوشيوس « لسبل السماء » (١٨) · وربما تحوم الشبهات حـول كونفوشيوس بأنه يراوغ فى هذا المبحث ، ويمكن أيضـا التشكك فى أنه ذو أفكار مصوغة بشأن الأرواح ، ولكن لا يمكن اتهامه بالصمت التام عن البحث فى السماء · فثمة فقرات عديدة فى هذا الكتاب يشير فيها كونفوشيوس الى السماء ، أحيانا بوصفها قوة أخلاقية لا تقهر ، وأحيانا أخرى بوصفها كيانا فائقا مفعما بالارادة والغائية ·

---

(١٧) فى الفقرة ١٢ من الكتاب الثالث يسأل الأستاذ المعلم عن معنى القول : ان المرء يجب ان يقدم الاضحية للأرواح كما لو كانت حاضرة فأجاب : اذا لم اكن حاضرا حين تقديم الاضحية لى ، فكأنه لم يكن ثمة اضحية · The Analects, p. 97.

(١٨) فى الفقرة الثانية عشر ، من الكتاب العاشر اقرار صريح بان الأستاذ المعلم لا يخبرنا بشيء البتة عن طبيعة الانسان أو عن سبل السماء · (The Analects, p. 110).

السماء ــ الألوهية .. لم ؟ :

ان السماء عند كونفوشيوس هى الكيان الفائق الذى يحسم الأمور لصالح الأخلاق والحق ، ويتصور كونفوشيوس نفسه وكأن السلطة السماوية قد فوضته لكى يديم طريق الملك الحكيم على الأرض . ولذلك ، حين يهدد شعب كوانج حياة كونفوشيوس ، فانه يعلن : « اذا لم تعتزم السماء أن تجعل هذه الحضارة تبيد ، فما الذى يمكن أن يفعله شعب كوانج فى ؟ » . وحين تتأزم الأمور فى آونة أخـــرى ، يواسى كونفوشيوس أصدقاءه قائلا : « لقد خلقت السماء هذه الفضيلة فى أعطافى . فما الذى يمكن أن يفعله هوان توى فى ؟ » . أما أن كونفوشيوس يرى مشيئة الســـماء دائما فى صالح الخير ، ودائما تؤدى الى الربح الوفير ، فان هذا يظهر بوضوح أكثر فى عبارته بشأن اطراد الفصول وازدهار العديد الجم من المخلوقات . كثيرون من طلاب الكونفوشية اتخذوا من هذه العبـــارة برهانا على اعتقاد كونفوشيوس فى تلقائية قوة أخلاقية كونية قادرة على كل شىء . ربما كان هذا الرأى صائبا ؛ ولكن اذا حكمنا عن طريق أغلب اشارات كونفوشيوس المتعلقـــة بالسماء ، لوجدنا أن ثقل العبارة السالفة الذكر يظل منصرفا الى وصف السماء بأنها قوة محيسنة تعمل بأريحية بغير « تفسيرات محكمة » .

القدر .. المينج : Ming

تاو السماء بالمصطلحات الكونفوشية هو سبيل السماء أو مشيئة السماء . وهذه المشيئة فائقة تعلو على تدخل الانسان (١٩) . واذا كان استعمال كونفوشيوس لمصطلح السماء على تمام الاتساق ، فان مشيئة السماء أيضا لامندوحة عن أن تكون أخلاقية وفي صالح الخير . وها هنا يتقدم مصطلح كونفوشي آخر ، انه المينج . وقد يعني المينج اما أمرا واما قدرا . فحينما يظهر مرتبطا بالسماء أي كـ « مينج السماء » ، فانه يعني عادة أمر السماء ، أو مشيئة السماء . أما حين يظهر المينج منفردا ، فانه قد يعني القدر أو المصير . وما يجعل موقف كونفوشيوس من مشيئة السماء غامضا ، انما هو عبارته القائلة : « اذا كان للسبيل (التاو) أن يسود ، فان هذا قدر (مينج) ، أما اذا كان للسبيل أن يفشل ، فان هذا أيضا قدر (مينج) . فاذا كان هنا المينج هو ذاته المينج الذي يعني مشيئة السماء ، فان السماء حينئذ لن تنوي دائما أن تجعل السبيل العظيم يسود . وهذه الفكرة هي ما تفهم عموما بأنها الجبرية الكونفوشية (٢٠) .

(١٩) يقول كونفوشيوس : « الذي لا يفهم مشيئة السماء لا يكون أبدا انسانا ماجدا » . (The Analects, p. 233)

(٢٠) نص الفقرة الاولى من الكتاب التاسع : « نادرا ما تحدث الأستاذ المعلم عن الربح او المصير او الخيرية » ويعقب عليها آرثر ويلي

بعبارة أخرى ، القدر يظهر أيضـــا فى الفكر الكونفوشى بوصفه ضرورة مبهمة ، خارج ادراك بنى البشر ، وخارج تحكمهم •

خلق البنوة :

وقيل فى « المختارات » ما يكفى لاضاءة بعض المثل الكونفوشية الأخرى التى تتعلق بالمؤسسات الاجتماعيـة والسياسية • فحينما ينبه كونفوشنيوس طلابه لممارسـة طاعة الوالدين داخل الأسرة قبل أن يتعلموا كيف يقرأون ويكتبون جيدا ، فمن الواضح أن هذا ينطوى بداهة على أهمية الأسرة بوصفها صورة مصغرة للمجتمع • وعلى أية حال ، فكما نرى فى « المنتخبات » مغزى طاعة الأبنـــاء للوالدين فى المذهب الكونفوشى ليست بالأهمية التى يعم الاعتقاد فيها • فكونفوشـــيوس يصف هذه الفضيلة فى كتابه بأنها هامة لأنه ليس من المحتمل أن ينتهك قانون

فى الهامش بأن كونفوشيوس لا يتحدث عن الأمرر من زاوية المردود المالى الاوفر ــ كما ورد فى مواضع من النص أعلاه . أما موضوعنا الآن فهو النقطة الثانية : المصير ، وكما يقول ويلى ، لم يناقش كونفوشيوس شمولية الحتمية السـماوية أو الكونيـة لكل الأفعال الانسانية وهى القضية التى طرحتها مدرسن موتزو فى مرحلة أسبق وكانت مثارة فى عصر كونفوشيوس • أما الخيرية فانه لم يعرفها لأي من معاصريه • Ibid. p. 138.

المجتمع ونظامه ذلك الانسان الذى يحترم والديه وأيضا لأن امتنان المرء تجاه والديه عاطفة خيره يجب تشجيعها • ولكن ليس قصد كونفوشيوس فى هذا الكتاب أن يرفع طاعة الأبناء الى مصاف الفضيلة الانسانية العليا (٢١) ، والأحرى أن هذا تطور لاحق فى المدرسة الكونفوشية ، توسع فيه المعلقون الكونفوشيون على هذه النصوص ، وأعادوا تأويلها • أما كونفوشيوس نفسه فلا ينصح المرء بالطاعة المطلقة العمياء للوالدين انه يرى الفضيلة فى الابن الذى يحمى والده سارق الغنم ، بيد أنه أيضا يعلم الابن أن يعترض على والده الخاطىء بلطف ، لكن باصرار (٢٢)•

---

(٢١) بر الابناء بالوالدين وطاعتهما ، أو تقوى البنوة ، تشغل فقرات كثيرة متناثرة فى « المنتخبات » • فى الفقرة الخامسة من الكتاب الثانى سأل منج تزو الأستاذ المعلم عن معاملة الوالدين . فأجابه بالا يعصيهما أبدا مادام على قيد الحياة وأن يقوم بخدمتهما طبقا للشعائر ، ولما يحين أجلهما ويقدم لهما الأضحية ، طبقا للطقوس والشعائر (The Analects, p. 88-89) • الفقرات التالية ــ السادسة والسابعة والثامنة من الكتاب الثانى تحمل نفس المضمون • لكن ثمة فقرات أخرى فى « المنتخبات » تحمل استدراكا ، سوف أناقشه فى الهامش التالى •

(٢٢) تحمل الفقرة (١٨) من الكتاب الرابع مثل هذا المضمون . لكن كونفوشيوس يستأنفها قائلا : « اذا فشل فى تغيير رأى والديه الخاطىء ، عليه أن يتمسك باتجاه مخالف لهما ، بغير أن يعارضهما ، قد يشعر بالشجاعة تخونه ، لكن لن يشعر بامتعاض أبدا » •
The Analects, p. 105.

فلسفة التربية والتعليم :

كان كونفوشيوس بوصفه مربيا يجد فى تعليم طلابه على قدم المساواة ، بصرف النظر عن مراكزهم الاجتماعية وأصولهم العائلية • فقد آمن بقدرة البشر المتساوية على التعلم ، بيد أنه يعترف بالتفاوت بينهم فى العقل والموهبة • وفى « المنتخبات » يتقبل أولئك « الذين ولدوا و هم ذوو معرفة » على أنهم الأفضل ، وأولئك الذين يتعلمون بعد دراسة اجتهادية على أنهم النمط الثاني من العقل • ولا يقترح كونفوشيوس أبدا فى أى موضع من هذا الكتاب أن كل شخص ولد على قدم المساواة الاجتماعية ومؤهل للحق فى أن يحكم نفسه • وهو يستحث الحاكم على أن يتعلم السبيل القويم للحكم ، ويستحث طلابه على أن يتعلموا كيف يكونون وزراء كأفضل ما يمكن كى يساعدوا الحاكم ومؤدى نظرية كونفوشيوس لوظيفة الحكومة أنها يجب أن تحكم عن طريق الامتياز الأخلاقى ــ وهى نظرية ترهص بمجمل فلسفة منشيوس السياسية •

ان ملاحظة كونفوشيوس بشأن البشر الذين « يولدون مزودين بمعرفة » لملاحظة مثيرة الى حد بعيد ، بيد أن « المنتخبات » لسوء الحظ لا تعطى أى بيان واف لنظرية كونفوشيوس فى المعرفة • وفى مناقشة كيفية الدراسة يعترف كونفوشيوس باعتزامه « أن يلاحظ وأن يستودع الذاكرة ما قد لوحظ » لأنه يقر « بعجزه عن فعل

أى شىء بغير أن يعرف عنه أولا » • وحين نفحص هذه الأقوال معا ، نجد أن كونفوشيوس ينوه الى امكانيــة أن يولد بعض البشر مزودين بمعرفة ، ومن ثم يستطيع هؤلاء أن يتصرفوا تلقائيا بغير بذل الجهد لتعلم كيفية التصرف ، وبغير أن يكونوا على وعى بمعرفتهم • بيد أن كونفوشيوس يتجنب بحذر رفقة أولئك البشر المزودين بمثـــل هذه العقلية الفائقة ، ويعترف بأن مصدر معرفته هو الملاحظة والدراسة المكثفة • ويستبعد أيضـــا بلوغ العرفان من خلال التأمل بلا استعانة بكتب (٢٣) « لأنه حين « يحاول أن يفكر طوال النهار بغير أن يأكل وطوال الليل بغير أن ينام ، فلن ينتهى من هذا الى شىء » • وفضلا عن ذلك ، لاينفصـــل كونفوشيوس بلوغ العرفان عن التصرف والممارسة •

فى فلسفة الاسم :

وفقا لتعاليم كونفوشيوس ، المطابقـة الدقيقة بين الاسم والواقع أكثر أهمية من تلك العلاقة بين التصرف والمعرفة • لقد كان العهد آوان فوضى اضطرب فيه النظام الاجتماعى • لذلك استحث كونفوشيوس الملك على أن

---

(٢٣) الانسان عند كونفوشيوس لا يخجل أبدا من طلب المعرفة • يقول : « لو اعطيتنى خمسين عاما لانفقتها فى الدرس » •
The Analects, p. 126.

يسلك سلوك الملوك ، والوزير على أن يتصرف كما ينبغي أن يتصرف رجـــل فى مكانتـــه الساميـــة • اذ يقول كونفوشيوس ان الاسم اذا لم ينطبق انطباقا سليمان فان اللغة لن تعود وسيطا للتواصل • ونتيجة لهذا لايمكن بلوغ شيء ، ولن يعرف البشر حتى أين « يضعون أيديهم أو أقدامهم » (*) • وهذا المبدأ الكونفوشى ، مبدأ تصحيح وتدقيق الأسماء ، البادىء من منطلق أخلاقى والمتجه بشطر هدف عملى ، قد تطور الى جهد دؤوب لتعريف المصطلحات • ان اهتمام كونفوشيوس بهذه المسألة يميط اللثـــام عن افتراضــه الكامن خلف هذا الاهتمام ، أى افتراض أن الاسم ليس محض تمثيل لشيء ، بل انه صميم ماهيـــة الشيء ذاته • يمكن أن نجـــد نواة هذه الفكرة فى الفكر السابق على كونفوشيوس فى عصور الصين الموغلة فى القدم ، بيد أن جهود كونفوشيوس قد أضافت المغزى لهذه الفكرة ، وجعلتها تطورا هاما فى الفلسفة الصينية •

ختام : نظرة شاملة للكتاب وللرجل :

وعبر القرون يبقى كتاب « المنتخبات » ، على الرغم من ايجازه وحجمه المحدود ، أكثر المصادر صحة ومغنمة لدراسة كونفوشيوس ، الرجـــل وفكره • وفضلا عن الأفكار التى تمثل مفاتيح المذهب الكونفوشى الأصـــيل ،

(★) لعل كونفوشيوس بهذا يرهص بفلسفة اللغة وسيمانطيقية الألفاظ ، وهذا ما ساد الاهتمام به فلسفة القرن العشرين •

يلقى الكتاب أيضا الضوء على جوانب معينة من الحياة فى الصين القديمـــة • ان شذرات الأحاديث الدائرة بين كونفوشيوس وبعض من القادة السياسيين ، تكشف عن الدور الذى لعبه المفكرون فى مجتمع خضعت فيـه القيم لتغير كان دراميا • وتكشف هذه الأحاديث أيضـــا عن كيفية تنافس الدول تنافسا منطلقا لاتحده أية قيـــود من أجل التفوق فى صولة النضال التى تلت انهيار النظام الاقطاعى العتيق (**) •

أما الحقيقة القائلة ان بعض العبارات التى تمثل مفاتيح فى « المنتخبات » قد أولها المؤلون بطرق متباينة ، فانها قطعا أدلت بدلوها فى بقاء المذهب الكونفوشى على قيد الحياة • وكل شخص ، من أكثر المجددين تحررا الى أكثر المحافظين تشددا ، اذا ما بحث بحثا دؤوبا فى هذا الكتاب ، سيجد به شيئا لصالحه • والحق أن الكثير قد جرى ارجاعه الى التعاليم الكونفوشـــية ، وكنتيجة لهذا تشوهت تعاليم كونفوشيوس الفعلية • وعلى الرغم من تباين التأويلات ، فانه من الأهمية بمكان ملاحظـــة أن كونفوشيوس قد رفع قيمة المجتمع المنتظم والآمن والمنسجم الى أعلى حد • ووجه كل تفكيره وتعليمه صـــوب هذا الهدف • وكان تاو كونفوشيوس ســبيلا لتحقيق هذا

(★★) المقصود الحقبة التى أشرت اليها فى التصدير عن حضارة الصين ، أى حقبة الدول المتحاربة التى تلت انهيار النظام الاقطاعى •

المثال • أما « تى » (الفضيلة) (٢٤) عنده فكانت دعواه بأنه منذور للمعرفة بالسبيل ، أما « ون » كونفوشيوس (تنقيته للتراث الثقافى) ، فمعنى بتراث المؤسسات السائدة فى ماض ذهبى خيالى مستقى من النصوص العتيقة (*) •

ولنكن على ثقة من أن كونفوشيوس أكد على أن المجتمع لن ينعم بالسلام ما لم يسلك كل فرد من أفراده بالصورة الملائمة ، وفقا لوضعه الاجتماعى • وهذا يعنى أن الفرد عند كونفوشيوس ذو أهمية ، ولكن فقط على قدر ما يستطيع أن يساعد فى جلب السلام والانسجام فى المجتمع • وليس ثمة دليل كاف فى هذا الكتاب على ما اذا كان كونفوشيوس قد تأمل وضع الانسان فى الكون ، أو تناول مسائل ميتافيزيقية أخرى •

---

(٢٤) Te معناها الفضيلة لكن ليست كمقابلة للخطيئة ، بل الأحرى الفضيلة بمعنى الفضل • مثلا فضيلة أو فضل الدواء أو الشيء أو الشخص . أنها أقرب الى سمات الشخصية منها الى التقييم الاخلاقى للسلوك •

The Analects, Introd. by A. waley, p. 33.

(*) المقصود الأباطرة الخمسة الأولين الصالحين . أيضا الذين ذكرتهم فى التصدير •

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٦٨٩/١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 4109 — 7

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى عشرة قروش
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

مط...
الهيئة المصر...